الفصل الثاني

«لا أستطيع أن أُنكر أنني استمتعتُ إلى أقصى حدٍّ بكلِّ الضجة التي أثاروها من حولي.. شيءٌ ما فيها كان مُرضيًا لشيءٍ ما فيَّ، لعله الغرور».

محمد حسنين هيكل

obeikandl.com

١٩٦٠

مصرع السفاح.. عبد الناصر!

(١)

في السادس من أبريل نشرت جريدة «الأخبار» في صفحتها الأولى بيانًا من حكمدار القاهرة يتوعد فيه كلَّ من يساعد السفاح أو يأويه، ويعرض مكافأة ١٠٠٠ جنيه لمن يساعد في القبض عليه.

وبعد أيام قادت الكلابُ، رجال الشرطة للوصول إلى المغارة التي يختبئ بداخلها اللص «محمود سليمان» في حلوان، وذهبت قوة كبيرة من الشرطة يتقدمها حكمدار القاهرة، ووصلت إلى «محمود سليمان».

وأمسك الحكمدار بالميكروفون وقال لـ«سليمان»: «سلِّم نفسك يا محمود».

فردّ «سليمان»: «إذا كنتم عايزين تموّتوني أنا مستعدّ أخلّص على نفسي.. طلقة واحدة الحكاية تخلص».

لكنّ «سليمان» لم ينتحر؛ بل طلب أن يسلِّم نفسه بشرط أن يأتوا إليه بشخصين: الأول، زوجته الخائنة التي كانت سبب كل ما جرى له.

والثاني، الكاتب الصحفي «محمد حسنين هيكل»، رئيس تحرير «الأهرام»!

obeikandl.com

لكن لم تستجب الشرطة لطلباته.

فطلب «سليمان» ورقًا أبيض ليكتب مذكراته، ودار نقاش طويل مع حكمدار القاهرة، وفي أثناء النقاش داهمت الشرطة المغارة، ومات «محمود سليمان».

وفي اليوم التالي قالت «الأهرام» إن «سليمان» تلقى ١٧ رصاصة من الشرطة، بينما كتبت صحيفة «المساء» إن اللص أطلق رصاصة من مسدسه على نفسه.

والمدهش أنه بعد مقتل «سليمان» فتشت الشرطة آخر شقة أقام فيها في شارع محمد علي، وعثرت فيها على رسالة كتبها اللص إلى «محمد حسنين هيكل»، وطلب فيها أن ينشر مذكراته على حلقات في «الأهرام».

ونشر «هيكل» رسالة السفاح في الصفحة الأولى وقد جاء فيها: «لا بد أن أكتب لعل وعسى أن أفيد المجتمع المريض الذي يحاربني بقوة، ولست أدري من أين أبدأ، ولكن الأفضل لي وللمجتمع أن يفهم هذه الواقعة بالذات؛ لأنها هي التي غيَّرت مجرى حياتي».

ويتحدث «سليمان» عن زوجته «نوال» التي انتشلها من ماضٍ ملوَّث، وعندما فكر في الزواج بعد طلاق زوجته الأولى، تصور أنَّ زوجته ستكون خادمة له، وأحبّها، ولكن كانت الخيانة مصيره».

وتابع «سليمان»: «إذا أظلمت الحياة أمامك اسخط على المجتمع لأنه المسؤول وَدَعِ الرحمة جانبًا، فالرحمة فوق العدل والقوة فوق العدل».

قصة اللص «محمود سليمان» شغلت كل الصحف، وتابعها الجميع، ولم يكن الرأي العام مشغولًا بغيرها؛ لكنها تسببت فيما لم يخطر ببال أحد!

ففي اليوم التالي لمقتل «محمود سليمان» خرج مانشيت جريدة «الأخبار» يقول:

- **«مصرع السفاح»**

وأسفل هذا المانشيت عنوان آخر يقول:

- **«عبد الناصر في باكستان»**

ولم يكن يفصل بين العنوانين سوى خط رفيع جدًّا، وبدا للقارئ أنهما عنوان واحد!

وحين قرأ «عبد الناصر» العنوان قيل إنه علَّق قائلًا: «ومصرع مصطفى أمين هيكون في القاهرة»!

وقيل إن هذا العنوان كان السبب الأول في قرار تأميم الصحافة الذي صدر بعد أقل من شهرين من خروجه للنور.

(٢)

في هذا التوقيت اقترح «إحسان عبد القدوس» على مجلس إدارة مجلة «روزاليوسف» أن يشتري المحررون والعمال الدار من أصحابها بقيمة رأس المال حتى لا تُترك عدالة توزيع الحقوق نظير العمل في يد أصحاب الدار يوجِّهونها حسب أمزجتهم، على أن يتم تقسيم الأرباح آخر السنة على ثلاثة أبواب، أحدها يُدفع منه الأقساط المستحقة لأصحاب الدار الأصليين، وآخر يُرصد فيه الاحتياطي، وما قد يتطلبه التوسع في أعمال الدار، والباقي من الأرباح يوزَّع على حَمَلَة الأسهم.

وانتقد «علي أمين» في «أخبار اليوم» انفلات بعض الكتاب وتصورهم أن الحرية تسمح لهم بأن «يدوسوا» مقدسات المجتمع والمثل العليا.

وفي ٢٤ مايو صدر قرار تنظيم الصحافة، ونُقلت ملكية الصحف إلى الاتحاد القومي، لا إلى الدولة؛ ولذلك نص القرار على تنظيم الصحافة، لا تأميمها.

وشمل القرار الدور الصحفية الخمس الكبرى «الأهرام» و«أخبار اليوم» و«الجمهورية» و«دار الهلال» و«روزاليوسف»، وانتدب «جمال عبد الناصر» أحد الضباط من مكتبه، وجعله مشرفًا على «أخبار اليوم»، ووضعت السُّلْطة يدها على الصحافة.

(٣)

وعقب صدور القانون التقى «عبد الناصر» مع مجالس إدارات المؤسسات الصحفية الجديدة، وبرؤساء تحرير الصحف والمجلات وتحدث عن الظروف التي اقتضت نقل ملكية الصحف إلى الشعب، ورسالة الصحافة، ودورها في المجتمع الاشتراكي الديموقراطي.

وقال «عبد الناصر»: «ليس هدفنا أن نغتصب مبانيَ ٥ أدوارٍ أو ١١ دورًا.. لا بد أن نبني مجتمعًا اشتراكيًّا متحررًا من الاستغلال، المجتمع الذي نريد أن نبنيه بالقطع مش مجتمع القاهرة، ولا النادي الأهلي، ولا نادي الزمالك، ولا نادي الجزيرة، ولا السهرات بتاعة بالليل.. مش هيّا دي بلدنا بأي حال من الأحوال، بلدنا كفر البطيخ.. القرية أيّ قرية هيّا دي نموذج بلدنا، وهناك مشكلات حقيقية في بلدنا، واللي عاوز يكتب عن بلدنا يروح هناك، ويشوف الناس اللي لابسين برانيط قشّ وبيشيلوا الرز طوال النهار لكي يعيشوا، دي بلدنا.. ماهيّاش أبدًا فلانة اطّلقت أو اتجوزت، ولا فلانة طلعت تجري ورا فلان وسابت علّان.. أبدًا».

وواصل «عبد الناصر» حديثه قائلًا: «إذا أردنا أن تكون عندنا فعلًا صحافة يجب أن تكون في خدمة الناس في بلدنا وفي خدمة مجتمعها الأصيل الطبيعي اللي احنا جينا منه.. لما نيجي ونقول إن احنا عايزين نخلق المجتمع الاشتراكي، بحيث يكون فيه قطاع عام نبص نلاقي مقالة تقول لنا بيعوا القطاع العام.. هناك إعلانات لا تتمشى حتى مع كرامتنا كبلد،

لدرجة أن إعلانات السفارات الأجنبية على اختلافها أصبحت بندًا ثابتًا في الصحف».

وعلق «مصطفى أمين» على قانون تنظيم الصحافة في عموده بعنوان في «أخبار اليوم» قائلًا: «إننا كنا نؤيد الثورة ونحن أصحاب (أخبار اليوم)، ونحن نؤيد الثورة ونحن أصحاب (أخبار اليوم) سابقًا، وسواء كنا نملك الصحف أو يملكها الشعب فنحن نشعر بأننا جزء لا يتجزّأ من هذا الشعب، فما دام الشعب أصبح يملك (أخبار اليوم)، فمازلنا نحن أصحاب(أخبار اليوم)، ولا يهمنا ونحن في معركة الوطن أن نكون في الصف الأول أو في الصف الأخير».

ودافع «محمد حسنين هيكل» عن قرار قانون تنظيم الصحافة، وكتب سلسلة مقالات في «الأهرام» بعنوان «الصحافة»، جاء فيها: «لقد كان قانون تنظيم الصحافة الجديد حاسمًا في تقييمه لحرية الصحافة.. وحرية الصحافة بخير.. وكيف يمكن أن يخطر على البال أن الضمانات لحرية الصحافة كانت مصونة حين كانت الصحف في ملكية فرد؟».

وتساءل «هيكل»: «لماذا يقال إن القانون الذي صدر بشأن الصحافة هو قانون (تنظيم الصحافة) ولماذا لا يقال صراحة إنه قانون لتأميم الصحافة؟! الجواب: لأن الصحافة لم تؤمَّم.. نقول ذلك لا تجنبًا لكلمة التأميم أو حذرًا منها، فإن كلمة التأميم كلمة لها قيمتها ولها احترامها في مجتمع يؤمن بالاشتراكية».

لكن لم تقف قرارات تنظيم -أو تأميم- الصحافة عند هذا الحد، ففي العام التالي كانت هناك قرارات جديدة، البعض استفاد منها، والبعض الآخر دفع ثمنها!

١٩٦١

يد الرقيب

(١)

كان لا بد أن يبحث الصحفيون عن مخرج. قانون تنظيم الصحافة من أمامهم، والرقيب من خلفهم، ولم يتصور أحد أن تكون الصورة قاتمة على هذا النحو.

فقد كان البعض يظن -وبعض الظن إثم- أن تنظيم الصحافة لن يضرَّ بها، بل ربما يجعلها أقوى، لكن الكل اكتشف الحقيقة، ولم يعد بمقدور أحد أن يكتب حرفًا واحدًا في الصحف دون أن تطاله يد الرقيب، والعتيد!

وكان «أنيس منصور» أول الضحايا، فقد صدر قرار بفصله من قسم الفلسفة بكلية الآداب، ومنعه من الكتابة لمدة عام بسبب مقال بعنوان «حمار الشيخ عبد السلام» قيل إنه يقصد منه النَّيل من الرئيس «جمال عبد الناصر».

وحين عاد «أنيس» إلى الكتابة، مُنع «فكري أباظة»!

وذلك بسبب مقال كتبه في مجلة «المصور» طالب فيه الدول الكبرى بإنشاء اتحاد فيدرالي بين الدول العربية بما فيها فلسطين وإسرائيل، وترتب على هذا المقال إعفاء كاتبه من رئاسة مجلس إدارة «دار الهلال»،

obeikandl.com

ورئاسة تحرير «المصور».

لكن قيل إن السبب الحقيقي لعزله، هو أنه كتب مقالًا عن الديكتاتورية في إسبانيا، فقال بعض الوشاة إنه يقصد الديكتاتورية في مصر!

وتوقف «فكري أباظة» عن الكتابة، ولم يعد إلا بعد كتابته مقالًا في جريدة «الأهرام» يعتذر فيه عما كتبه في مجلة «المصور».

(٢)

في هذه الأثناء احتدم الخلاف بين المثقفين المصريين خلال الفترة من ١٢ مارس إلى ١٤ يوليو، وانقسموا إلى قسمين:

الأول، يتقدمه «لطفي الخولي».

والثاني، يتزعمه «محمد حسنين هيكل».

فقد كتب «الخولي» عدة مقالات تحت عنوان «أزمة المثقفين»، وتحدث عن مشكلاتهم، وهواجسهم، ودافع عن موقف اليسار، وانتقد تصرفات رجال الثورة ضدهم.

بينما دافع «هيكل» عن موقف ورؤية الدولة تجاه المثقفين، ودورهم قائلًا: «ظروف عديدة تسببت في أن يصبح عدد كبير من المثقفين أصحاب مصالح متميزة عن مصلحة الجماهير».

وقد طرح «هيكل» في هذه المقالات السؤال الأخطر وهو: «ما الذي كان يمكن أن يحققه الهمس بعودة الجيش إلى ثكناته؟». وأجاب قائلًا: «لقد تحركت من الجيش طليعة، دعاها الفراغ القيادي وإحساسها المتصل بإحساس الجماهير أن تترك عملها النظامي وتخرج إلى المجال الثوري.. فهل امتلأ الفراغ الذي دعاها ببديل قادر على القيادة؟

obeikandi.com

لقد مهّد لتحرك الطليعة ونجاح حركتها، إرادةٌ شعبيةٌ تُلحّ في تغيير البناء الاجتماعي على أساس من العدل والتكافؤ».

وتساءل هيكل: «هل حدث التغيير وهل أُعيد تشكيل المجتمع على نحو يكفل المساواة والتكافؤ في الفرص؟».

وأجاب: «لقد كانت الثورة هي المطلب العميق للجماهير وللطليعة التي احتفظت باتصالها الشعبي وتفاعلها معه.. فهل الثورة هي مجرد مغامرة ٢٣ يوليو، أم أن هذه المغامرة مجرد مقدمة تمكِّن من إحداث التغيير الأساسي تمهيدًا لتحقيق الأمل الذي تتطلع إليه الجماهير المتحفزة للثورة؟ وفضلًا عن ذلك كله فلقد كان يمكن في ذلك الوقت أن يتعرض العمل الثوري للخطر.. فلقد كان من العسير وسط الفراغ السياسي المخيف وقتها أن توجد جماعة قادرة على تحقيق الثورة، من غير الاعتماد على تأييد الجيش، ومعنى ذلك أن الجيش سوف يبقى من وراء الستار هو السُّلْطة العليا في البلاد، وذلك وضع بالغ الخطورة».

(٣)

وفي الرابع عشر من مايو صدر قرار بتأميم وسائل الإعلام، وجعلها تحت إشراف الاتحاد الاشتراكي، وكذلك تأميم الصناعة، والبنوك وشركات التأمين، وبعض الشركات الخاصة.

وكان من بينها شركة لإنتاج الأسطوانات تُدعى «مصر فون» أسسها الفنان «محمد فوزي»، وأنفق عليها كل ما يملك، ونجحت بصورة غير مسبوقة، وجذب إليه عددًا كبيرًا من كبار النجوم أمثال «أم كلثوم ونجاة الصغيرة»، وغيرهما كثير.

لكن فجأة صدر القرار بتأميم الشركة، وتعيينه موظفًا بها بمرتب مئة جنيه، فمرض «فوزي» وسافر إلى ألمانيا، إلا أن المستشفى الألماني أصدر بيانًا قال فيه إنه لم يتوصل إلى معرفة مرضه الحقيقي ولا كيفية علاجه، وإنه خامس شخص على مستوى العالم يصيبه هذا المرض، حيث وصل وزنه إلى ٣٦ كجم.

(٤)

وعقب تأميم وسائل الإعلام صدر قرار بترقية «محمد حسنين هيكل» ليصبح رئيسًا لمجلس إدارة «الأهرام» بجانب رئاسته لتحريرها.

وفي يوم الجمعة الحادي عشر من أغسطس بدأت «الأهرام» تنشر في ملحقها الأدبي قصة جديدة لنجيب محفوظ سمّاها «اللص والكلاب».

وبمجرد أن قرأ الناس الحلقة الأولى أدركوا أنها مستوحاة من قصة اللص «محمود سليمان» الذي أُطلق عليه لقب «السفاح» قبل عام واحد فقط.

وكأن قصة «محمود سليمان» محفوظة باسم «الأهرام»، لكن في العام التالي أخذت القصة منحى آخر!

obeikandl.com

١٩٦٢

بلدك أضعف من أن يتحمل الحقيقة

(١)

تحولت قصة نجيب محفوظ «اللص والكلاب» إلى فيلم سينمائي بطولة «شكري سرحان وشادية وكمال الشناوي» وإخراج «كمال الشيخ».

وانتقل «علي أمين» من مؤسسة «أخبار اليوم» إلى دار «الهلال» ليصبح رئيسًا لتحرير «مجلة الهلال»، وكان قرار النقل بمثابة إقصاء؛ فالمجلة توزيعها محدود، ومواردها محدودة للغاية.

لكنه قرر أن ينجح، فجمع كل نجوم الفكر والأدب والفن والصحافة في إصدار واحد بل في عدد واحد فقط.

ومن بينهم: عباس العقاد، وطه حسين، وكامل الشناوي، وإحسان عبد القدوس، وأحمد بهاء الدين، وصلاح جاهين، ومصطفى أمين، ومحمد حسنين هيكل، والدكتور محمد حسين هيكل، وأنيس منصور، ومحمد فريد أبو حديد، هذا علاوة على عدد كبير من نجوم الفن مثل عبد الحليم حافظ، وشادية، وفاتن حمامة، ومارلين مونرو!

فعادت «الهلال» إلى الحياة واضطرت لأول مرة في عمرها المهني إلى أن تجمع الورق «الدشت» وتطبع عليه نسخًا رديئة، التهمتها السوق

obeikandl.com

في دقائق، بعد أن نفدت كل الكمية المطبوعة.

هذا نتاج ما فعله «علي أمين»، فقد بثَّ الروح في مؤسسة عريقة، واستعاد شباب مجلة شاخت، حتى لا تتعرض للانقراض، وحين قالوا له إن ما فعله معجزة، علَّق قائلًا: «أنا لم أصنع هذه المعجزة، مَن صنعوها هم الذين يحرقون دماءهم وأعصابهم في المقاعد الأولى في صحافة بلادك والذين تعاونوا معي».

(٢)

وفي أثناء تطوير «الهلال» بدأت مجلة «روزاليوسف» في نشر حلقات رواية «تلك الأيام» للأديب «فتحي غانم».

وبطل تلك الرواية يُدعى الدكتور «سالم عبيد» أستاذ التاريخ الذي كان عضوًا في لجنة كتابة الميثاق الوطني، وقد جاء فيها: «إن بلدك أضعف من أن يتحمل الحقيقة، إن كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تدرس تفاصيل الأحداث، ثم تقف في قاعة المحاضرات بجامعة القاهرة لتختار التفاصيل المناسبة اللائقة، وتسردها أمام الطلبة.. لا شيء أكثر من هذا يا عزيزي.. أو السجن.. نصف الحقيقة وتحيا.. كل الحقيقة والمقصلة يا عزيزي».

تلك الرواية نفثت عما جاش في صدر كثيرين خصوصًا حين قال «غانم» على لسان «سالم عبيد»: «انتهت الأحلام والمعجزات والمستحيلات.. كل ما نشرتُه.. كل ما قلتُه لتلاميذي لم يخرج عن أن يكون أنصاف حقائق.. ثم لا شيء.. مجرد رغي.. دردشة.. لا حقيقة على الإطلاق».

obeikandi.com

(٣)

وفي تلك الأثناء حضر رائد الفضاء الروسي إلى مصر «يوري جاجارين»، واستقبلته استقبال الفاتحين، وكان نائب رئيس الجمهورية «زكريا محيي الدين» في انتظاره في مطار ألماظة.

والتقى «جاجارين» عددًا كبيرًا من كبار الكتاب والشعراء، والتقاه «جمال عبد الناصر»، وكرّمه، ومنحه قلادة النيل، ووضع «جاجارين» شارة رواد الفضاء على صدر نجل الرئيس.

لكن قصة «جاجارين» بدأت قبل عام حين أطلق صرخته قائلًا: «فلننطلق»،

وذلك قبل انطلاق المركبة الفضائية «فوستوك -١» في أول رحلة للبشرية إلى الفضاء، وتلك الصرخة لاقت هوى في مصر التي كانت أيضًا تنطلق بأحلامها إلى عنان السماء.

وخرجت «الأهرام» على تقاليدها، وكانت الصفحة الأولى لا تتضمن سوى حدث واحد تحت عنوان كبير:

- **رجل في الفضاء**

وحين عاد «جاجارين» من رحلته إلى القمر، كان بدهيًّا أن تستقبله مصر، مع قرابة ثلاثين دولة حول العالم؛ لتسمع منه ماذا رأى في الفضاء؟ وكيف صعد إلى القمر؟ وفيمَ كان يفكر؟ وهل واجهته صعوبات؟ وما طبيعتها؟ ومتى تسلل الخوف إلى قلبه؟

لكن المثير أن «جاجارين» الرجل التي تحدثت الدنيا عن براعته في قيادة مركبة فضائية، رحل عن الدنيا بعد ست سنوات فقط من زيارته لمصر،

وعمره لم يتجاوز الرابعة والثلاثين، وذلك في أثناء رحلة تدريب بطائرة عسكرية!

(٤)

وبعد أن غادر «جاجارين» القاهرة أعلن «جمال عبد الناصر» عن نجاح الخبراء المصريين بمعاونة خبراء ألمان في تصنيع صواريخ بعيدة المدى: الظاهر، والقاهر، والرائد.

وتم الإعلان عن مجانية التعليم في جميع مراحله، واقترح «مصطفى أمين» دعوة منتخب البرازيل للعب في القاهرة مع منتخب مصر -بعد أن فازت البرازيل بكأس العالم- بحيث يؤدي ثلاث مباريات، اثنتين في القاهرة، وواحدة في الإسكندرية.

وعندما علم «عبد الناصر» بالخبر اتصل بـ«مصطفى أمين» تليفونيًّا ليلومه على تلك الفكرة التي بدأ في تنفيذها وقال له: «أنت رايح تجيب فريق يغلبنا..! مصر ماتخسرش في أي حاجة.. حتى لو كانت مباراة في كرة القدم».

وكانت وجهة نظر «عبد الناصر» أنه لا يريد لمصر أن تنهزم أبدًا حتى لو كانت الهزيمة في كرة القدم.

obeikandl.com

١٩٦٣

فضيحة الموسم

(١)

في شهر مارس أعلنت مجلة «الكواكب» أنها قد عثرت على كنز أدبي كبير.

ونشرت المجلة على صفحتها قصة لم تُنشر من قبل للكاتب المسرحي السويسري الشهير «فردريك دورنيمات» تحت عنوان: «الهواء الأسود»؛ وذلك بسبب انتشار مسرح «اللامعقول» الذي بدا مسيطرًا ومتصدرًا باعتباره موضة جديدة رائجة، ولها جمهور من نخبة النخبة.

ودعت المجلة عددًا كبيرًا من كبار النقاد للتعليق على مسرحية «الهواء الأسود» كواحدة من روائع مسرح «اللامعقول»، وباعتبارها خبطة صحفية كبرى استطاعت المجلة أن تحققها.

وتجاوب النقاد مع قصة «دورنيمات» الجديدة، ونشرت «الكواكب» في الأسبوع التالي على صفحاتها احتفاء النقاد والمهتمين بالمسرح،

وقد أشاد النقاد بروعة قصة «الهواء الأسود»، وبعبقرية مؤلفها، وبالدلالات المهمة التي تحملها، وبالمعاني الكامنة بداخلها، وبالرموز التي استخدمها المؤلف، والتي قد تخفى على القارئ.

obeikandl.com

(٢)

وبعد أن انتهت تعليقات النقاد، ومدحهم في قصة «الهواء الأسود» والإشادة بعبقرية مؤلفها، حدثت مفاجأة لم تخطر ببال أحد.

فقد خرج الكاتب الساخر «أحمد رجب» ليفاجئ الجميع بقوله: «أنا الموقِّع أدناه أحمد رجب أقرّ وأعترف بأنني كاتب مسرحية الهواء الأسود وأنني مؤلفها الأوحد.. وأن الخواجة فردريك دورنيمات الكاتب المسرحي السويسري لا علاقة له إطلاقًا بهذه المسرحية.. وأنه ليس له أي إنتاج مسرحي بهذا الاسم»!

«أحمد رجب» أراد أن يثبت بشكل عملي أنه لا يوجد شيء اسمه مسرح «اللامعقول» وأن ما يفعله هؤلاء النقاد هو اللا معقول ذاته!

وكشف «رجب» تفاصيل ما جرى بقوله: «أقرّ وأعترف أنني كتبت هذه المسرحية في مكتبي بالغرفة رقم ٤٠٦ بمبنى دار الهلال بالسيدة زينب.. وأن هذه المسرحية لم تُكتب إطلاقًا في لوزان، ولا جنيف، ولا زيوريخ، وأنني كنت أكتب هذه المسرحية الخالدة، وأنا مصاب بنوبة ضحك شديدة».

واستطرد «رجب» قائلًا: «وفي أثناء انهماكي في كتابة هذه المسرحية الخالدة.. دخل مكتبي الزميل حلمي سلام وسألني ماذا أكتب، فقلت له: مسرحية لمسرح اللا معقول، وتناول حلمي الأوراق التي كتبتها وراح يقرأ وهو فطسان من الضحك.. والظاهرة التي هي في منتهى العجب أن كتابة هذه المسرحية كلها لم تستغرق أكثر من ساعة ونصف الساعة.. فقد كنت أكتبها بلا أي تفكير ولا منطق.. الأمر الذي سهَّل مهمتي كثيرًا! فمادام مسرح اللا معقول لا يحكمه أي منطق أو مألوف..

فمش ضروري منطق ولا مألوف».

وأردف «رجب» قائلًا: «عندما انتهيت من كتابتها جلست أهرش رأسي بحثًا عن عنوان خطير للمسرحية الخالدة».

وفي هذه الأثناء دخل إلى مكتب «أحمد رجب» صديقه «مرسي الشافعي» مدير تحرير مجلة «المصور»، وقرأ «الشافعي» وكاد يقع من الضحك.

واقترح «مرسي الشافعي» أن تسمَّى هذه المسرحية «الهواء الأسود»، ووافق «أحمد رجب» لكنه احتار في الاسم الذي يوقِّعه عليها هل يوقعها باسم «أحمد فريدريك» أم «أحمد يونسكو» أم «أحمد بيكيت» أم «رجب دورنيمات»! وانتهى الأمر بتوقيعها باسم «فريدريك دورنيمات» باعتبار أن إنتاجه لم يصل إلى مصر بعد.

وقبل أن يُسلم «أحمد رجب» المسرحية إلى «سعد الدين توفيق» رئيس تحرير «الكواكب»، أعطاها لزوجته كي تقرأها، فعلّقت قائلةً: »أنت بتسكر من ورايا يا راجل؟ إيه الكلام الفاضي ده اللي مالوش لا راس ولا رجلين!».

وتابع «رجب» بقوله: كان معنى كلام زوجتي هذا أن «الهواء الأسود» قد نجحت كمسرحية لمسرح اللا معقول.. وأن النقاد سوف يشبعون مدحًا، وتقريظًا لها.. وأعطيت المسرحية بمنتهى الاطمئنان إلى سعد الدين توفيق.. وانتهى دوري عند هذا الحد والله العظيم.

واختتم «رجب» كلامه قائلًا: والآن.. شكرًا لهؤلاء النقاد على مدحي وتقريظي.. طبعًا هذا شرف عظيم أن يُجمعوا على أنني مؤلف مسرحي عالمي خطير الشأن، وبعد تعليقهم هذا هناك أمر من اثنين: إما أنني مؤلف مسرحي خطير فعلًا رغم أنني لم أكتب للمسرح أي إنتاج حتى الآن،

obeikandi.com

وإما أنهم يرجعون في كلامهم بعد أن عرفوا الحقيقة وهي أن مؤلف «الهواءالأسود» ليس خواجة وإنما هو أحمد بن رجب، ولذلك اعتبرت نفسي مؤلفًا مسرحيًّا عالميًّا أضع اسمي بكل فخر إلى جوار الخواجات بيكيت، ويونسكو، وأوزبورن، وكوكتو.. ومن له اعتراض من النقاد فليتقدم.

(٢)

وفي الأسبوع التالي نشرت «الكواكب» تعليقات كبار الأدباء والمثقفين على فضيحة الموسم الثقافية، وما فعله «أحمد رجب» في النقاد.

فعلَّق «طه حسين» قائلًا: «إنها عقدة الخواجة فعلًا».

وقال «العقاد»: «وُفِّق الكاتب الصحفي أحمد رجب إلى حملة ناجحة على أسلوب النقد اليدوي منذ أيام فلفَّق رواية خنفشارية باسم (الهواء الأسود) ونسبها إلى مؤلف خنفشاري في إحدى الديار الأوروبية؛ فاهتزت لها أعطاف النقاد المحترمين إعجابًا، وطربًا، وارتفعوا بها إلى قمم العبقرية فنًّا، وأدبًا، وقارنوا بينها، وبين بدائع المنثور، والمنظوم التي فاضت بها قريحة المؤلف المعدوم.. وهؤلاء النقاد المحترمون أولى مَن ينبغي أن يساق إلى محكمة التزييف لحماية هذه الأمة من وبال دعواهم».

ودافع «توفيق الحكيم» عن «أحمد رجب» قائلًا: «هذا مقلب ظريف ولطيف».

بينما قال «إحسان عبد القدوس»: «كل ما نرجوه من السادة النقاد أن يصرّوا على رأيهم الخطأ.. وأن يرفعوا أحمد رجب إلى مرتبة الكتاب العالميين».

وعلّق الشاعر «صلاح عبد الصبور» قائلًا: «إن هذا أعظم عمل نقدي للنقاد قامت به الصحافة طوال السنوات الأخيرة»!

(٣)

في الوقت الذي شغل فيه «أحمد رجب» مصر كلها بفضيحة «الهواء الأسود»، فاز صديقه «أنيس منصور» بجائزة الدولة التشجيعية.

وذهب «أنيس» ليتسلم الجائزة من الرئيس «جمال عبد الناصر»، وكان «يوسف السباعي» يقف بجوار الرئيس على المنصة.

وفجأة سأل «عبد الناصر»، «السباعي»: «مش أنيس ده شيوعي؟».

فرد «السباعي» قائلًا: «لا يا ريس.. التاني اسمه عبد العظيم أنيس.. وده اسمه أنيس منصور.. وسيادتك رفدته من سنتين، ورجع».

ثم أردف «السباعي» ساخرًا: «حضرتك تحب نفصله تاني؟».

لم يُفصل «أنيس منصور» مرة أخرى؛ لكن في العام التالي صدر قرار بفصل آخرين!

obeikandl.com

١٩٦٤

الطريق إلى باتا

(١)

بعد أن صار الصحفي موظفًا لدى الحكومة، صار مثل الصيد الذي يسهل قنصه، وصار الرقيب هو الحاكم الفعلي داخل الصحف.

وصارت الكتابة تلميحًا، والأفكار عبارة عن إشارات بعيدة المدى، والرؤى بمثابة رسائل مغلّفة من بين السطور، والذكاء هو البطل، وتمرير الرسائل إلى القارئ يتم من خلف ستار.

وصار التحايل على الرقيب هو الهدف الأول الذي يحرزه الكُتاب، ولم يعد الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين، بل صار الخط الأعوج هو الأقصر والأسرع والأضمن والأفضل والأيسر، وصار «عِلم اللَّوَع أضخم كتاب في الأرض.. بس اللي يغلط فيه يجيبه الأرض» مثلما قال العم «صلاح جاهين».

وصار إعلام الصوت الواحد، والصورة الواحدة، والرجل الواحد، وبيانات الأجهزة الأمنية، هو الحاكم والحَكَم والمتحكم.

وصار الكلام بحساب، والكلمة بميزان، والرأي بحذر، وكان الاختلاف ممنوعًا، والخلاف غير وارد، والنقاش غير مُستحب، والنقد

obeikandl.com

غير جائز، والاعتراض مرفوضًا، وليس أمامك سوى أن تؤيد، وتبايع، وتوافق، وتتفق، وتلتزم بالتعليمات.

وكان الرئيس يملك الرؤية الواضحة؛ وحوله كبار الكتاب والصحفيين؛ لكن رغم حب «عبد الناصر» للشعب، وانحيازه إلى البسطاء؛ لكنه لم يكن يثق بهم، بل كان يضع ثقته كاملة في أجهزته الأمنية والمعنية، وكانت تقول له: «كله تمام» و«برقبتي يا ريس» و«قبضنا على الخونة والمتآمرين».

وصار أغلبنا يتصور أن النيات الحسنة، والمشروعات العملاقة، والأحلام الكبرى يمكن أن تتحقق من دون ديموقراطية، وظننَّا أننا على بُعد خطوات من الدول العظمى، وأننا ننافس الدول الكبرى، ونسير بجوار اليابان.

ومن لا يصدق، أو يشكِّك أو تبدو عليه مظاهر عدم رضا عن النظام، أو عدم الترحيب بقرارات الرئيس كان يتم إبعاده خارج بلاط صاحبة الجلالة.

وكانت قرارات الإبعاد تبدو مثل العدوى تنتقل من صحيفة إلى أخرى، ففي صحيفة «الجمهورية»، أصدر «حلمي سلام» رئيس مجلس إدارة مؤسسة «دار التحرير» قرارًا باستبعاد أربعين من كبار الكتاب والصحفيين بجريدة «الجمهورية» وتوزيعهم على مؤسسات وشركات القطاع العام.

وكان من بينهم «سعد الدين وهبة، وعبد الرحمن الشرقاوي، وعبد الرحمن الخميسي، ومحسن محمد» ولعل السبب الرئيسي في استبعاد أغلبهم هو أنهم أصحاب رأي حر، ويمثلون زعامات داخل الجريدة.

openkandi.com

وتم إلحاق هؤلاء الصحفيين بأعمال خارج الصحافة؛ فالبعض ذهب للعمل في شركة «باتا» المتخصصة في صناعة الأحذية، وبعضهم ذهب للعمل في مطار القاهرة، وبعضهم عمل في العلاقات العامة في شركات القطاع العام المتخصصة في اللحوم والأخشاب أو الصفيح لمتابعة إنجازات هذه القطاعات؛ لكن دون المساس برواتبهم، وهذه كانت تعليمات الرئيس شخصيًّا.

القرار كان بمثابة صدمة عنيفة للصحفيين جميعًا، فيومها شعروا أنهم تحولوا -في ظل قانون تأميم الصحافة- إلى موظفين يخضعون للوائح النقل والتأديب مثل موظفي الحكومة، الأمر الذي أكد أن الصحافة المصرية باتت جزءًا من الجهاز الحكومي، وأنها فقدت استقلالها، ولم تعد حرة للتعبير عن الرأي.

لكن المدهش أن بعض الصحفيين الذي تم إبعادهم ونقلهم إلى وظائف حكومية، لم يقبلوا العودة إلى الصحافة حين تم السماح له بذلك، فقد فضل البعض الاستقرار، والمرتب الثابت، والبُعد عن سوط السُّلْطة، وتجنب بحر الرمال المتحركة الذي يسير عليه كل صحفي يعمل في بلاط صاحبة الجلالة.

(٢)

وبدأ «خُدام الرقيب» رحلة الصعود، وظهرت الكائنات الطفيلية في الصحافة.

والطفيليات: كائنات حية تعيش وتتغذى على كائنات أخرى حية، وقد تسبِّب الكثير من الأمراض للشخص الذي تتطفل عليه.

.. و«الطفيلي»: هو ذلك الشخص الذي يأكل من موائد الآخرين دون دعوة.

وللأسف هناك أوجه شبه كثيرة بين الطفيليات، وبعض البشر الذين يتغذون

على الآخرين، ويأكلون على كل الموائد، ويسببون الكثير من الآلام، ومن بين هؤلاء تجد نموذجًا صارخًا ودليلًا فاضحًا على ذلك وهو ذلك الكائن الذي يُدعى «الصحفي المخبر»، فالصحافة على مدار تاريخها عرفت نوعين من محرري «الأخبار»، وبينهما هوة كبيرة وواسعة كالتي بين السماء والأرض:

الأول، المخبر الصحفي: وهو مَن يأتي بالخبر للجريدة التي يعمل بها، ويتحرى الدقة في نقله، ويتسم بالدأب.

ففي خمسينيات القرن الماضي كان من يأتي بالخبر يطلق عليه مخبر صحفي، وكان لدى كل صحيفة عدد كبير من المخبرين يأتون لها بالكواليس والخبايا، والأسرار من شتى المصادر، وكانت «أخبار اليوم» أكثر مؤسسة تعتمد على الخبر، وبالتالي فهي الأكثر اهتمامًا بالمخبر الصحفي باعتباره عينها في كل مكان، وكان لديها شبكة واسعة تأتي بالخبر لحظة حدوثه، وكان «مصطفى أمين» يولي هذه النوعية من المحررين اهتمامًا خاصًّا، ومع مرور الوقت تغير المسمَّى، وبقيت المهام، وتعددت الأسماء فصار يطلق عليه مندوب الجريدة في الوزارة أو الهيئة أو المؤسسة، أو المحرر الصحفي باعتباره يحرر الخبر، أو المحرر الميداني الذي يوجد في مواقع الأحداث -العنيفة- ويتابعها عن قُرب.

أما الثاني، فهو «الصحفي المخبر»: وهو من يأتي بالخبر من الجريدة ليبلغه لمصدره الأمني، ويذهب لتغطية الأحداث، ويكون عينًا للأمن، وليس عينًا للقارئ والجريدة. هناك واقعة رواها الكاتب الصحفي «محمد العزبي» تكشف ما كان يجري في كواليس صاحبة الجلالة، فقد سأل «يوسف إدريس» أحد الصحفيين: «مش أنت كنت بتكتب تقارير أمنية؟».

فرد الصحفي بسرعة: «أبدًا أنا كنت بأصلّح فيها أخطاء العربي بس»!

تلك الواقعة وغيرها كثير تقول إن «الصحفي المخبر» ظهر في الصحافة منذ سنوات طويلة؛ لكنه في أول الأمر كان مُحتقَرًا، ومُهمَّشًا، وخائبًا، وتافهًا، ومفضوحًا، والكل يعرفه، ويسخر منه، وذلك قبل أن يرتقي، ويصير المسؤول الأول في بعض الصحف.

(٣)

وفي تلك الأثناء فقدت مصر ثلاث قامات كبيرة، فقد رحل الأديب «عباس محمود العقاد»، ودفن يوم ١٣ مارس، وفي نفس اليوم رحل الكاتب الصحفي «كريم ثابت» المستشار الصحفي للملك فاروق، وقبلهما بخمسة أيام رحل الفنان «عبد الفتاح القصري» الذي فقد بصره، وهو واقف على خشبة المسرح.

وقبل نهاية شهر مارس بدأ بث إذاعة القرآن الكريم من القاهرة؛ لتكون بمثابة أول تسجيل صوتي للقرآن، وتم افتتاحها بأصوات خمسة من كبار المقرئين، واحتفت بها الصحف.

وحدث بعض التغييرات الصحفية قبل نهاية العام، فقد اختار «جمال عبد الناصر»، «خالد محيي الدين» رئيسًا لمجلس إدارة «روزاليوسف»، و«أحمد حمروش» لرئاسة تحرير «روزاليوسف»، و«أحمد فؤاد» مشرفًا على «دار أخبار اليوم».

وفي العام التالي حدثت تحولات كبرى في مسيرة مؤسسة «أخبار اليوم».

١٩٦٥

اختفاء هيكل.. واختفاء إسرائيل!

(١)

في ٢٣ أبريل طلب «علي أمين» من هيكل أن يترك «أخبار اليوم»، ويذهب للعمل معه في «الأهرام»، وعلل ذلك بأن جو العمل في «أخبار اليوم» أصبح ثقيلًا عليه، وقد أصبح ضيِّق الصدر بكل شيء، ويكاد ينفجر في أي لحظة.

واتفقا على أن يكون «علي أمين» مراسلًا مقيمًا في لندن.

وفي مساء ذلك اليوم كان «هيكل» على موعد مع «جمال عبد الناصر» وأخبره بما فعل، ثم أضاف: «إن علي أمين يحمل قلب طفل رغم اندفاعاته أحيانًا» وفوجئ بـ«عبد الناصر» يسأله: «ومصطفى؟!».

فشعر «هيكل» أن لديه شيئًا يعرفه، ولا يريد أن يقوله، ثم حدث بعد فترة شيء أصاب «هيكل» بالدهشة.

كان «هيكل» على موعد مع «جمال عبد الناصر»، فإذا به وسط حديث طويل يقول له: «أنت تتقابل مع مصطفى أمين بطريقة منتظمة، وليس من شأني أن تقابله أو لا تقابله.. هذه مسألة تخصك؛ ولكني أرجوك أن تتحفظ في أحاديثك معه».

obeikandl.com

وفي ٢١ يوليو كان «هيكل» في بيت «جمال عبد الناصر» مستعدًّا لمناقشة تسبق كتابة خطاب الرئيس في الاحتفال بعيد الثورة، وبعد نصف ساعة من الدردشة العابرة وقبل أن يدخل في تفاصيل الخطاب، دق جرس التليفون على مكتبه، وأمسك بالسماعة، ولم يتكلم «عبد الناصر» بل كان يسمع فقط، ولم يستغرق الوقت طويلًا على التليفون فما لبث أن قال لمحدِّثه بنبرة هادئة: «طيب».

ثم وضع السماعة وعاد إلى مقعده، وأشعل سيجارة جذب منها نفسًا عميقًا، ثم قال مخاطبًا «هيكل»: «سأقول لك الآن شيئًا أعرف أنه سيضايقك.. لقد قبضوا على مصطفى أمين متلبِّسًا بالتجسس للأمريكان».

(٢)

وقد روى «مصطفى أمين» تفاصيل ما جرى في ليلة القبض عليه قائلًا: (ساقني القدر في منتصف ليلة سوداء لأدخل «الأوبرج» وكان في استقبالي اللواء حمزة البسيوني، مدير السجون الحربية، وملكها المتوج، والخبير العالمي في شؤون التعذيب، استقبلني ومعه «ميمي» و«ليلي» وهما الكلبان المُعدَّان لاستقبال النزلاء، واستمر هذا النوع من التعذيب أحد عشر يومًا، وفي اليوم الثاني عشر أخذوني ليلًا إلى مكتب اللواء حمزة البسيوني ووجدته في انتظاري، ومع عدد من ضباط صلاح نصر، وأمر كبيرهم أن أخلع ملابسي ليرى آثار التعذيب على جسمي)!

وتابع «مصطفى أمين»: «التفتَ إلى حمزة قائلًا: لا يا حمزة بك، أنتم دللتموه جدًّا. وهنا هوى الشاويش المصاحب لي بالسوط الذي يحمله على صدري بضربة ظللت أتألم منها لمدة عام كامل»!

و«صاح اللواء حمزة البسيوني -والكلام ما زال على لسان مصطفى أمين: لا، حرام! لا تضربوه! هات لاكي.. وظننتُ في أول الأمر أنه طبيب أو ممرض، وفجأة رأيت أمامي كلبًا هائلًا! كلب في حجم الحمار الضخم، ثم أمسك بي كبير ضباط صلاح نصر من كتفي، وقال: اسمع.. بشرفي إن لم تكتب الاعتراف فسنأتي بخطيبتك إلى هنا، وسأجعلها تخلع ملابسها مثلك، وسأعطيها للحراس يضاجعونها أمام عينيك. وانهرت أمام هذا التهديد».

وأردف «مصطفى أمين» قائلًا: «قلت إنني مستعدّ أن أكتب ما تملونه عليَّ! وكانت حصة إملاء! هم يُملون، وأنا أكتب أشياء لم تحدث، كتبتها بغير اعتراض.. أحداث لم تقع.. أكاذيب واضحة، كل هذا كتبته كما أملوه حتى النقاط.. حتى أول السطر! حتى الأغلاط في اللغة العربية! وبعد أن انتهيت من كتابة (الاعترافات) المطلوبة صدر الأمر بعدم ضربي أو تعذيبي لأن التحقيق انتهى»!

ونشرت الصحف خبر إلقاء القبض على «مصطفى أمين» واتهامه بالتخابر مع دولة أجنبية، وتهريب ٢٠ ألف جنيه إلى الخارج.

وقيل إن السبب الرئيسي في القبض عليه هو أنه قال لملحق بالسفارة الأمريكية: «لو منعت أمريكا القمح.. لركع عبد الناصر».

(٣)

وتوقف «هيكل» عن كتابة مقاله «بصراحة» في هذه التوقيت، مما أثار العديد من علامات الاستفهام، والتعجب، والترقب.

كان اختفاء «هيكل» مثيرًا للدهشة، وفتح الباب أمام كل التفسيرات، والتأويلات، لدرجة أن البعض ظن -وبعض الظن إثم- أنه قد تم منعه من الكتابة، بل قال البعض إنه قد تم اعتقاله مع «مصطفى أمين»،

وتساءلت صحف سوريا ولبنان عن سر غياب «هيكل» المفاجئ، لكن المدهش أن صحف إسرائيل احتفت باختفاء «هيكل»!

وتوقع البعض أن «هيكل» أراد أن لا يكون موجودًا في مصر في الأيام الأولى لسجن «مصطفى أمين»، لكنّ المقربين من «هيكل» أكدوا أنه كان في لندن بجوار نجله «علي» الذي كان يُجري عملية جراحية في عينه.

وفي السادس من أغسطس عاد «هيكل» لكتابة «بصراحة» بمقال تحت عنوان «بعد زيارة لندن»، جاء فيه: «لا بد أن أقدم شكري غاليًا وعزيزًا للذين شغلوا أنفسهم بأمري خلال ثلاثة أسابيع لم أكتب فيها هذا الحديث -يقصد بصراحة- أكثرهم، رعاهم الله، قَبِلوا عذري بأنني كنت في لندن لزيارة خاصة، وأكاد أقول شخصية، وأقلهم خصوصًا في صحف دمشق، وفي بعض صحف بيروت، وفي إذاعات إسرائيل تمنّعوا عن قبول هذا العذر، وأصرّوا على أن هناك أسرارًا أخرى».

وأردف «هيكل» قائلًا: «لا أستطيع أن أُنكر على كل حال أنني استمتعت إلى أقصى حدٍّ بكل الضجة التي أثاروها من حولي.. شيء ما فيها كان مُرضيًا لشيءٍ ما فيَّ، لعله الغرور.. أعترف وأستغفر».

(٤)

وفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من أغسطس امتلأ ميدان التحرير عن آخره بالجماهير التي جاءت لتودِّع «النحاس باشا».

الجنازة انطلقت من مسجد «عمر مكرم»، إلى شارع «طلعت حرب»، ومنه إلى جامع «الكخيا»، وأُقيمت الصلاة عليه في مسجد «الحسين».

كان مشهدًا مَهيبًا، فقد مرت ثلاثة عشر عامًا على ثورة يوليو، وخلال

تلك السنوات كان محظورًا ذكر اسم «مصطفى النحاس» في أي إذاعة أو صحيفة، وبالطبع لم يأتِ ذكر اسمه في التليفزيون، وظنَّ الجميع أن الناس نسوا الرجل الذي ألغى معاهدة ٣٦، وكافح من أجل الدستور، وشرع قانون استقلال القضاء، والضمان الاجتماعي، وغيرها من القوانين التي انتصرت للبسطاء.

ظنَّ البعض أن الثورة محت ما قبلها، وأن فرض الحصار على الرجل يمكن أن يجعله خارج التاريخ، ويتم محو إنجازاته.

لكن جاءت جنازته على نحوٍ لم يتوقعه أحد، فقد كانت بمثابة مظاهرة شعبية حاشدة قوامها نحو مئة ألفٍ أو يزيدون، وهتفوا: «لا زعيم إلا النحّاس.. لا زعيم بعدك يا نحّاس» و«يا حفيد النبي الزين.. جالك الزعيم الزين» و«إشكي لسعد الظلم يا نحاس».

كأن هذه الهتافات كانت تحمل رسالة إلى الزعيم، ووصلت الرسالة إلى «جمال عبد الناصر»!

وصدر قرار باعتقال كبار الوفديين الذين مشوا في جنازة النحاس، وقيل إنه تم توجيه اللوم إلى محافظ الإسكندرية وقتها حمدي عاشور؛ لأنه سمح بإذاعة خبر وفاة النحاس من إذاعة الإسكندرية المحلية.

وفي العام التالي صدرت قرارات أخرى!

١٩٦٦

بـ«الشلوت»

(١)

فجأة صدر قرار بنقل ٣٨ محررًا من «أخبار اليوم» إلى مؤسسات عامة لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالعمل الصحفي.

وتوقفت عن الصدور مجلة «بناء الوطن» التي أصدرتها ثورة يوليو لتكون بمثابة توثيق للمشروعات الاقتصادية الجديدة.

وقد شارك في الكتابة بها عدد من كبار الكتاب من بينهم: «فكري أباظة، وكامل الشناوي، ونجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، وموسى صبري».

وفي أكتوبر اقتحم ضباط المباحث منزل «عبد الرحمن الأبنودي»، وتم إلقاء القبض عليه، ومصادرة كل أوراقه، وعصْب عينيه بقطعة من قماش وأخذوه إلى إحدى جهات التحقيق.

وفي أثناء سيره في الطريق إلى المعتقل ظلوا يضربونه بـ«الشلوت» وعلى رأسه حتى وصل إلى مكتب المحقق، وهو لا يستطيع الوقوف على قدمه.

وأُجري معه تحقيق صوري، بعد انتهائه مكث ٣٦ يومًا في سجن انفرادي في القلعة، بلا أي شيء، لا جورنال، ولا ورقة، ولا يرى سوى

obeikandi.com

بُقعة ضوء تأتي إليه في كل صباح من نافذة الزنزانة، ويظل يلاعبها إلى أن تبهت، وتختفي.

لم يكن «الأبنودي» وحده الذي دخل سجن «عبد الناصر» في هذا التوقيت، فقد سبقته قائمة طويلة من المثقفين، ودخل معه السجن عدد كبير من أصدقائه المقربين، من بينهم «جمال الغيطاني، وسيد حجاب، ومحمد العزبي، وسيد خميس، وصلاح عيسى». وكان من غير المسموح أن يجلسوا أو يتحدثوا معًا.

وقد تركت تجربة السجن أثرًا مدهشًا في هذا الجيل من الصحفيين والمثقفين، فالمبدع الحق -مثلما يقول «الأبنودي»- لا بد أن يمر بثلاث تجارب رئيسية: أن يعيش أجواء الحرب، وأن يدخل السجن، وأن يأنس بالحب، وقد مروا بالثلاث.

فقد كان حائط السجن مثل كرسيّ الاعتراف الذي جعلهم يدركون حجم إيمانهم بما يفعلون، ويختبرون درجة صمودهم، وشجاعتهم، ويضعون كل شيء في حجمه الحقيقي.

وفي أثناء السجن كتب «الأبنودي» الجزء الثاني من قصيدة «أحمد سماعين»، وقد ساعده في ذلك أحد المعتقلين عندما سرَّب له «ورق بَفرا» و«قلم كوبيا» وسجائر، وقد اشترط «الأبنودي» أن يحصل على سيجارة إضافية فوق سيجارتيه من أجل كتابة هذه القصيدة.

وفجأة تم الإعلان عن زيارة المفكر الفرنسي «جان بول سارتر»؛ لكنه طلب أن يتم الإفراج عن المثقفين قبل حضوره، ووافق «عبد الناصر» لكن بشرط!

وهو أن يأتي «سارتر» أولًا إلى مصر، وبعد أن يصعد إلى طائرته، يتم الإفراج عن جميع المثقفين، وهو ما قد حدث في العام التالي.

openkandi.com

(٢)

وفي هذه الأثناء، فوجئ قراء مجلة «صباح الخير» برسمة كبيرة عبارة عن باب مفتوح، ويظهر من خلفه «قط» يرتدى نظارة، وبين دفتي الباب رسالة قصيرة تقول:

عزيزي القارئ:

عاد صلاح جاهين إلى «صباح الخير»!

تولى صلاح جاهين رئاسة تحرير المجلة..

وإلى الأسبوع المقبل!

بهذه الطريقة أعلن «أحمد بهاء الدين» رئيس مجلس إدارة «صباح الخير» عن قرار تعيين «جاهين» رئيسًا لتحرير المجلة.

وفي الأسبوع التالي ظهرت الافتتاحية بقلم «صلاح جاهين» وجاء فيها:

(صباح الخير يا.. عزيزي القارئ!

استولى الرسامون الكاريكاتوريون، ومن لَفَّ لفَّهم، على مجلة «صباح الخير».. وأظنك كنت ملاحظًا منذ البداية، بما لديك من الفراسة، والدراية، أن هؤلاء «ناويين يعملوها».. فمنذ اللحظات الأولى لصدور «صباح الخير» بدت للعين الخبيرة «لطع» الكاريكاتير متناثرة هنا وهناك، وسرعان ما ظهر «الفقس» وتكاثرت النُّكت والأزجال، والغمزات واللمزات، والمناكفات، والمناغشات، وانتشرت انتشار النار في الهشيم).

وواصل «جاهين» حديثه قائلًا: «عوَّدتك مجلتك صباح الخير، التي يتغنى بحبها الطير، أن تخرج إليك في كل مرة بشيء جديد، ابتسامة

obeikandi.com

جديدة، تبويزة جديدة، صداقة جديدة، خناقة جديدة، وها هي ذي تخرج إليك الآن بهذا الثوب الجديد الذي نرجو أن يعجبك».

وروى «جاهين» كواليس العدد الأول تحت رئاسته قائلًا: «سهرنا.. حسن فؤاد وأنا.. في بيته بالروضة نصنع هذا الثوب الجديد.. وتذكرنا أول توب صنعناه لها قبل أن تولد.. كنا في نفس البيت.. نفس الغرفة.. نفس المكتب.. وكنا نجلس متقابلين.. كل منّا على نفس المقعد في نفس الناحية.. كنا نفس الإنسانين.. بنفس الإيمان ونفس التفاهم ونفس الحماس، ولكننا لم نكن نفس العمر».

وأردف قائلًا: «في هذه المرة كنا أكبر بأحد عشر عامًا.. حسن أصبح أسمن قليلًا.. والعبد لله أصبح أعقل قليلًا»!

غيَّر «جاهين» وجه «صباح الخير»، وتلفحت بخفة ظله، وتأنقت بشِعره، وتألقت بحيويته، وفي عدد واحد فقط ظهر «أحمد بهاء الدين، وفؤاد حداد، ومحمود السعدني، وعلاء الديب، ومصطفى محمود، ورؤوف توفيق، ومفيد فوزي»، علاوة على الفنانين «حجازي، وجورج بهجوري، وإيهاب، وناجي، وحسن فؤاد».

فقد تسلم «جاهين» المجلة وتوزيعها ٢٦ ألف نسخة داخل مصر، وخمسة عشر ألف نسخة خارجها، وخلال أشهر قليلة قفز توزيع «صباح الخير» إلى سبعين ألف نسخة داخل مصر وخارجها، وبلغت الأحلام عنان السماء، وكانت مصر تغني مع «عبد الحليم حافظ»:

«صورة، صورة، صورة.. كلنا كده عايزين صورة
صورة للشعب الفرحان.. تحت الراية المنصورة».

لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، ففجأة هبطت الأحلام إلى أسفل سافلين في العام التالي!

obeikandi.com

١٩٦٧

ولا يهمّك يا ريّس!

(١)

في مساء يوم الخامس من يونيو خرجت الصحف تقول:

- **أسقطنا ٨٦ طائرة**
- **الجيش العربي يزحف إلى تل أبيب**
- **قواتنا تتوغل داخل إسرائيل**

وكانت الإذاعة لا تذيع إلا بيانات الإذاعي الكبير أحمد سعيد، وذهب أغلب نجوم الغناء في مصر والوطن العربي إلى استديوهات الإذاعة، وسجّلوا عشرات الأغاني منها: «أبو خالد يا حبيب.. بكره هندخل تل أبيب» و«إنذار يا استعمار» و«ولا يهمك يا ريس من الأمريكان يا ريس» و«مضيق تيران.. يوم الخلاص.. قرّب خلاص».

وتلك الأغاني لم تُذع إلا لثلاثة أيام فقط، وفي اليوم الرابع خرج جمال ليعلن التنحي، وضاعت عشرات الأغاني لكبار المطربين، والشعراء، والملحنين، وذهبت سُدى، ولم يعد لذكرها أثر؛ بل إنها لم تُذع بعد نصر أكتوبر باعتبارها فألًا سيئًا.

في تلك اللحظة استيقظ الجميع على الحقيقة المفزعة والمؤلمة والقاسية وأعلن الرئيس مسؤوليته الكاملة عما جرى وقرر التنحي، لكن الشعب

رفض، وأعاده إلى مقعده ليبدأ واحدة من أفضل المعارك التي خاضها الجيش، وهي حرب الاستنزاف التي كبَّدت العدو خسائر فادحة وكانت مقدمة لنصر أكتوبر، وفي تلك الفترة بدأت مراجعة النفس، والأفكار، والمعتقدات السائدة قبل النكسة، وبدأ المخلصون يعرضون أفكارًا جديدة ومختلفة، ويواجهون الرئيس وينتقدونه بقوة.

لكن لم يُجب أحد عن السؤال الأهم: هل لو قال «أحمد سعيد» الحقيقة كانت ستذيع الإذاعة بياناته؟ وهل لو كتب «جلال الحمامصي» محذرًا كان سيُسمح له بالنشر؟ وهل لو غيَّر «فتحي غانم» مانشيتات جريدة «المساء» كانت المطابع ستطبع الجريدة؟!

(٢)

وهبط توزيع مجلة «صباح الخير» إلى ثمانية آلاف نسخة فقط في الداخل والخارج، وساد الجميع الحزن ليس على المجلة وحدها ولكن على مصر بأسرها، ولم يذهب «جاهين» إلى المجلة.

وفي تلك الأثناء اتصل «لويس جريس» مدير تحرير المجلة بـ«صلاح جاهين» وسأله: «إيه الحكاية يا عم صلاح؟». فرد ضاحكًا: «مقلب.. مش كده؟ تعيش وتاخد غيرها»!

فعلّق «لويس» قائلًا: «ماينفعش يا عم صلاح، حنرجع نرتفع تاني».

وفي يوم ١٢ يونيو اتصل «جاهين» بصديقه «لويس جريس» وقال له: «لويس.. أنا راجع للأهرام، وتركتُ لك هدية في درج المكتب اليمين»!

وذهب «لويس» إلى «صباح الخير» وجلس على مقعد «صلاح جاهين»، وفتح الدرج اليمين، فوجد رسمًا بيانيًّا يسجل نمو وارتفاع

obeikandi.com

توزيع مجلة «صباح الخير» خلال الفترة التي كان فيها «جاهين» رئيسًا لتحريرها.

وخرج «جاهين» من «صباح الخير» ولم يَعُد.

(٣)

وبعد خمسة أشهر فقط من الهزيمة، وافقت كوكب الشرق «أم كلثوم» أن تغني في باريس، فاتصل بها «برونو كاكوتركس» مدير أكبر وأهم مسرح في العاصمة الفرنسية ليتفق معها على المقابل المادي الذي ستحصل عليه. فسألته: كم أجر «إديث بياف»؟ (أكبر مطربة فرنسية في ذلك التوقيت، وواحدة من أهم علامات الغناء في العالم)، فأجابها: تحصل على ١٠ ملايين جنيه في الحفلة. فقالت له: «إذن أحصل أنا على ٢٠ مليونًا في الحفلة، وهاغنِّي أغنيتين فقط.. وربما ثلاثًا»!

فذُهل الرجل من حجم المبلغ، وذُهل أكثر حين علم أنها ستغنِّي أغنيتين فقط، فهو لم يسمع عن أغنية زادت مدتها على ١٠ دقائق، فظن أن الحفل سينتهي في ٢٠ دقيقة!

وهنا تدخل الأديب «محمد سلماوي» الذي لعب دور المترجم بينه وبين سيدة الغناء، وشرح له أن مدة الأغنية الواحدة تصل إلى ساعة ونصف الساعة. فهدأ الرجل، ووافق على شروط كوكب الشرق.

لكنه ظل قلقًا أن لا يأتي الحفل بالعائد المنتظر منه، خصوصًا أنه لم يكن يعرف عن أم كلثوم سوى أنها مطربة كبيرة في بلدها، واقترب موعد الحفل، ونصف التذاكر ما زال متبقيًا، لم يشتره أحد.

obeikandi.com

وفجأة تغيّر كل شيء بمجرد أن وطئت قدم «أم كلثوم» مطار «شارل ديجول»، وقالت كلمتين فقط: «أيوه هاغنِّي».

فتأكد الجميع أن سيدة الغناء ستغني لأول مرة في أوروبا بعد النكسة؛ فنفدت التذاكر قبل أن تصل «أم كلثوم» إلى غرفتها في الفندق، وجاء الجمهور من كل حدب وصوب، والطائرات حملت الجماهير من كل أنحاء العالم؛ ليسمعوا «أم كلثوم» في عاصمة النور.

وأجرت «أم كلثوم» بروفاتها الأولى داخل مسرح «الأوليمبيا»، وسمعها مدير المسرح للمرة الأولى، ولم يُصدق ما سمع، فذهب إليها، وطبع قُبلة على يدها.

وجاء يوم الحفل، واحتشد الجمهور داخل المسرح، وأبدع «جلال معوض» في تقديمها كعادته؛ لكن الحماس سيطر على صوته، وكلماته من فرط الأجواء الملتهبة فقال: «اليوم أم كلثوم تغنِّي في باريس.. وقريبا تغنِّي في القدس المحتلة».

وصفقت الجماهير، واشتعل المسرح، وانزعج مدير المسرح ومنظِّم الحفل وذهب إلى «محمد سلماوي»، واصطحبه إلى غرفة «أم كلثوم» ليخبرها بانزعاجه مما فعله «جلال معوض» وأنه ليس في مناسبة سياسية ليتحدث عن القدس.

وقبل أن يبدأ «سلماوي» في الترجمة فهمت أم كلثوم ما يريده الرجل، وردت عليه محتدّة: «لا يا أستاذ.. إحنا في مناسبة وطنية.. وأنا جايّة أغنّي هنا عشان بلدي.. ودخْل الحفلة دي سيذهب للمجهود الحربي.. وعمومًا عشان أرفع عنك الحرج أنا متنازلة عن اتفاقنا.. وممكن ماغنِّيش النهارده لو هنزعجك.. ولو صممت على رأيك».

فصمت الرجل ولم ينطق، واستدارت كوكب الشرق موجهة كلامها

obeikandi.com

إلى فريق العازفين المصاحب لها: «لمّوا الآلات يا ولاد.. مش هاغنّي النهارده».

وكأن سهمًا أصاب الرجل في قلبه، لم ينطق إلا بكلمة واحدة، وانصرف بعدها فقد قال لها: «موافق».

وخرجت سيدة الغناء، وصعدت إلى المسرح، وغنّت كما لم تغنِّ من قبل، وقدَّم «معوض» الوصلة الثانية بنفس الحماس، وذات الطريقة، كأن مصر حققت انتصارًا فنيًّا وثقافيًّا على العدوان في قلب باريس!

وطال الحفل حتى الثانية من صباح اليوم التالي، وكانت هذه أول مرة تتأخر فيها حفلة إلى هذا الموعد في باريس.

وأفردت مجلة «الكواكب» عددًا خاصًّا عن «أم كلثوم»، ورحلتها إلى باريس، ورصدت أدق التفاصيل التي حدثت خلال تلك الزيارة، وما كتبته الصحف الفرنسية «لوموند» و«لوفيجارو« و«باري سوار»، وماذا قال مراسلو وكالات الأنباء العالمية ومحطات الإذاعة والتليفزيون الذين احتشدوا من كل عواصم العالم ليشهدوا الحدث الكبير الذي أطلقوا عليه اسم:

- **المعجزة الخارقة**

obeikandl.com

١٩٦٨

شيء من الخوف

(١)

في الحادي والعشرين من شهر فبراير، هتف طلاب مصر «لا صدقي ولا الغول عبد الناصر هو المسؤول»، وذلك احتجاجًا على نتائج محاكمة قائد سلاح الطيران «صدقي الغول» المتهم الأول في هزيمة ١٩٦٧.

وطاردت قوات الشرطة الطلاب، وقامت باستخدام الأعيرة النارية التي أدت إلى سقوط الكثيرين منهم، بل إنها أدت إلى إصابة بعض ممن تابعوا الاشتباكات من الشرفات -على حد وصف الدكتور ثروت عكاشة- وكانت المفارقة الطريفة التي صاحبت هذه الأحداث؛ هي إشادة وزير الداخلية «شعراوي جمعة» بدور قوات الشرطة في فض المظاهرات من دون إطلاق عيار ناري واحد ومن دون إصابة أي مدني، وأعلن أنه ولأول مرة في التاريخ المصري تقع الإصابات في صفوف قوات الشرطة لا في صفوف المتظاهرين!

obeikandl.com

(٢)

وفي صباح يوم الأربعاء الثامن والعشرين من فبراير عقد مجلس نقابة الصحفيين اجتماعًا طارئًا لمناقشة تطورات الموقف على أثر مظاهرات الطلبة التي انضمّت إليها الجماهير.

وحضر الاجتماع «أحمد بهاء الدين، وكامل زهيري، وفتحي غانم، وعلي حمدي الجمال، وسعيد سنبل، وصلاح الدين حافظ، وصبري أبو المجد، ومحمود المراغي، ومنصور القصبي، وسامي داوود»، واعتذر عن عدم الحضور «طلعت شعث».

وجرت مناقشة واسعة حول الأحداث، ودور الصحافة في هذه المرحلة، واتفق مجلس النقابة على إصدار مذكرة ورفعها إلى المسؤولين، جاء فيها: «إن مجلس نقابة الصحفيين يعتقد أن المظاهرات التي قام بها طلبة الجامعات والعمال كانت تعبيرًا عن إرادة شعبية عامة تطالب بالتغيير على ضوء الحقائق التي كشفت عنها النكسة.. وبناءً عليه يجب الإسراع في حساب كل المسؤولين، وتعميم هذا الحساب حتى يشمل كل القطاعات والمؤسسات في البلاد، ويجب توسيع قاعدة الديموقراطية، والإسراع في إصدار القوانين المنظِّمة للحريات العامة».

ووقَّع الحاضرون على البيان، وقبل إذاعته رن جرس الهاتف في مكتب نقيب الصحفيين، ووجد أن المتحدث هو الوزير حسن فايق وزير الإرشاد القومي، وقال الوزير للنقيب: «إن المطلوب هو عدم إذاعة أي بيان من نقابة الصحفيين».

ورد نقيب الصحفيين قائلًا: «آسف يا سيادة الوزير لأن القرار ليس قراري وحدي، ولكنه قرار مجلس النقابة».

وانهالت الاتصالات على مكتب «أحمد بهاء الدين»، من بينها اتصال من «علي صبري» الذي قال له: «بصفتي أمين الاتحاد الاشتراكي أرجو عدم إصدار هذا البيان».

وجاء رد نقيب الصحفيين حاسمًا: «إن الاتحاد الاشتراكي قد يكون مالكًا للمؤسسات الصحفية، ولكنه لا يملك نقابة الصحفيين».

وفي الساعة التاسعة مساءً توجه «أحمد بهاء الدين» حاملًا البيان مكتوبًا بخط يده، وقام بكتابته على الآلة الكاتبة، وفي صباح اليوم التالي كانت هناك نسخة من البيان على مكتب الرئيس «جمال عبد الناصر».

واعتبر «عبد الناصر» أن البيان طعنة موجَّهة إليه من نقابة الصحفيين، واقترح البعض القبض على «أحمد بهاء الدين»، واقترح البعض الآخر القبض على عدد من أعضاء مجلس نقابة الصحفيين؛ لكن «جمال عبد الناصر» علَّق على تلك الاقتراحات قائلًا: «لا تقبضوا عليه.. ده أحمد بهاء الدين وأنا عارفه.. مخه كده».

(٣)

وارتفعت حدة النقد في الصحف، وتعرض «محمد حسنين هيكل» لعاصفة من الهجوم، وطلب «سعيد سنبل» عضو مجلس نقابة الصحفيين الدعوة لاجتماع طارئ لمجلس النقابة للاحتجاج على تمييز «الأهرام» بالانفرادات، والمساعدات المالية عن بقية الصحف.

لكن «أحمد بهاء الدين» ردَّ قاطعًا: «إذا كنتم تريدون أن نجتمع في مجلس نقابة الصحفيين لمهاجمة هيكل فأنا غير مستعدّ لذلك، لأنه لو كان أي واحد في مكانه أو موقعه وحصل على ما حصل عليه من أخبار

لما وزعها على بقية الصحف، وعمل على الانفراد بنشرها في جريدته، أما إذا كان الاجتماع من أجل الاتجاه إلى الرئيس عبد الناصر الذي يخص بهذه الأخبار المهمة صحيفة دون أخرى، فأنا مستعد لعقد اجتماع المجلس فورًا».

(٤)

وفي نفس التوقيت كان الفنان «صلاح ذو الفقار» يبحث عن قرية تشارك بكل أبنائها في تمثيل فيلم جديد للمخرج حسين كمال.

وظل «ذو الفقار» فترة يبحث عن ضالته حتى وجدها في إحدى قرى محافظة القليوبية التي وافق عمدتها، ولكن بشرط أن يقوم المنتج بإنشاء «هاويس» لأهل القرية، فوافق «ذو الفقار» على دفع ثلاثة آلاف جنيه تكلفة بناء هاويس للقرية، ووافق العمدة على أن يشارك أهل القرية في الفيلم.

كان هذا الفيلم هو «شيء من الخوف» عن قصة الأديب «ثروت أباظة»، وبطولة «شادية ومحمود مرسي ويحيى شاهين»، وحوار «عبد الرحمن الأبنودي» الذي غيَّر معالم القصة لتخدم الصورة السينمائية البديعة التي رسمها «حسين كمال»، تلك الصورة المحفورة لـ«عتريس» الذي يقمع أهل بلده، لكنه يضعف أمام حبه لـ«فؤادة» التي وقفت مع أهل قريتها ضده، و«فتحت الهاويس».

ذلك المشهد التاريخي الذي لم يشارك فيه مجاميع من الكومبارس، لكن شاركت فيه قرية بأكملها من أجل تلك اللحظة التي انتظرها آلاف الأهالي طويلًا من أجل «فتح الهاويس» الذي أعاد الحياة إلى القرية، لذلك جاءت الاحتفالات صادقة وحقيقية وواقعية، وبلا أي ذرة من تمثيل.

هذا الفيلم وحده يكفي كل من شارك فيه فخرًا أنه كان شجاعًا في مواجهة النظام الحاكم.

فالكل كان يعرف أن «فؤادة» ترمز إلى مصر، وأن «عتريس» هو صورة لـ«جمال عبد الناصر»، لكنه رغم ذلك لم يُمنَع، ولم يُمانع «عبد الناصر» في عرضه، بل إنه هو من وافق عليه.

(٥)

في ١٦ أكتوبر كتب «ياسر عرفات» رئيس حركة «فتح» وقتها -والرئيس الفلسطيني في ما بعد- في مجلة «آخر ساعة» مقالًا بعنوان: «حركة فتح.. بناها الشباب» وفي نفس العدد أجرت مجلة «آخر ساعة» استفتاء تحت عنوان: «أول استفتاء داخل عقول ٥ آلاف شاب».

وضم الاستفتاء أربعين سؤالًا تناولت قضايا، ومشكلات، واتجاهات، وتقاليد، وأفكار، وأماني، وأحلام الشباب المصري.

ومن بين الأسئلة كان سؤال حول الأبواب التي يُقبل الشباب على قراءتها في الصحافة، وجاءت الإجابة بهذا الترتيب:

- **أخبار العمل الفدائي.**
- **أخبار الناس.**
- **الصفحة الأولى من الصحف.**
- **التحقيقات الصحفية والسياسية.**
- **اليوميات.**
- **أخبار الرياضة.**

obeikandi.com

وسألت المجلة الشباب: ماذا تفضِّل في قراءتك؟

وجاء الجواب كالآتي:

- الجرائد العربية ٣٤٪.
- الجرائد الأجنبية ١١٪.
- المجلات ٢٧٪.
- الكتب الأدبية ١٢٪.
- الكتب العلمية ٨٪.
- الشِّعر ٨٪.

وطرحت «آخر ساعة» سؤالًا حول أحب النجوم إلى الشباب في كل المجالات، وجاءت الإجابة كالتالي، وبالترتيب الذي ذكره الشباب:

الغناء «أم كلثوم- عبد الوهاب- فريد الأطرش- محمد رشدي» (لاحظ عدم وجود عبد الحليم حافظ)!

الممثلون «شكري سرحان- أحمد مظهر- رشدي أباظة» (لاحظ عدم وجود فريد شوقي)!

الممثلات «سعاد حسني- هند رستم- شادية» (لاحظ عدم وجود فاتن حمامة).

القصة «نجيب محفوظ- يوسف السباعي- إحسان عبد القدوس» (لاحظ أن السباعي هو رئيس تحرير المجلة).

الرياضة «طه إسماعيل- رفعت الفناجيلي- حمادة إمام» (لاحظ عدم وجود صالح سليم).

لكن السؤال اللافت في الاستفتاء كان للبنات، ويقول: هل أنتِ مُدخنة؟ ومتى يمكن أن تفكري في التدخين؟

وجاءت الإجابة أن عددًا لا يعد على أصابع اليد الواحدة قلن إنهن يقمن بتدخين السجائر، وأخريات لا يُدخنّ، وإنما يفضلن الزوج الذي يُدخن، وأخريات على استعداد للتدخين ولكن بعد الزواج!

ولم يتكرر هذا الاستفتاء مرة أخرى.

(٦)

وفي تلك الأثناء سافرت «أم كلثوم» إلى بيروت لإحياء حفلتين في مهرجان بعلبك الدولي يُخصص إيرادهما للمجهود الحربي.

وظهرت لأول مرة على صفحات جريدة «الأخبار» «نُص كلمة» لأحمد رجب، وجاء فيها: «استمعت إلى مذيعات مطار روما يعلنَّ عن مواعيد قيام ووصول الطائرات، وكأنني أستمع إلى صوت فيروز يشدو بنغم منساب! وسمعت مذيعات مطار فيينا كأنهن يغنين للمسافرين أغنية حالمة عذبة لطفل يوشك على النوم! وسمعت المذيعات في مطار القاهرة فندمتُ ندمًا شديدًا لأنني أجريت عملية استئصال للوزتين.. لا للأذنين»!

ونشرت «الأخبار» أخطر جزء في «مذكرات جيفارا» تحت عنوان:

- **جيشنا يتضاعف حماسة دون أن يتزايد عدده**

وأسهمت تلك المذكرات في رفع الروح المعنوية للجنود؛ لكن في العام التالي حدث ما رفع معنويات الشعب والجيش معًا!

obeikandl.com

١٩٦٩

أغبطك على موتك!

(١)

.. وجاء صباح يوم السبت الثامن من مارس.

وانطلقت نيران العسكرية المصرية على طول خط الجبهة لتكبِّد الإسرائيليين أكبر قدر من الخسائر في ساعات قليلة، ودمرت جزءًا من مواقع خط بارليف، وتمكنت من إسكات بعض مواقع مدفعيته في أعنف اشتباك شهدته الجبهة منذ يونيو ١٩٦٧.

وفي صبيحة اليوم التالي قرر الفريق «عبد المنعم رياض»، رئيس أركان حرب القوات المسلحة حينذاك، أن يتوجه بنفسه إلى الجبهة، وحين حاول البعض إثنائه قال: «إذا حاربنا حرب القادة في المكاتب بالقاهرة فالهزيمة ستكون محققة.. إن مكان القادة الصحيح هو وسط جنودهم، وفي مقدمة الصفوف الأمامية».

وذهب «عبد المنعم» ليشارك جنوده في مواجهة العدو، وتابع تفاصيل المعركة عن قرب، وأسهم في رفع الروح المعنوية للجيش، وقال لجنوده: «أخطاء الصغار صغيرة، ويمكن معالجتها ما دامت بغير قصد، أما أخطاء

obeikandl.com

الكبار فإنها دائمًا كبيرة».

ولم يكتفِ «رياض» بذلك بل قرر أن يقود المعركة من الموقع «٦٦» ذلك الموقع الذي كان أكثر المواقع المصرية قربًا من نيران العدو، وأول موقع فتح نيرانه على العدو، فلم يكن يبعد عن مرمى النيران الإسرائيلية سوى ٢٥٠ مترًا فقط.

وفجأة انهالت نيران العدو على الموقع الذي كان يقف فيه «عبد المنعم رياض» بين جنوده، واستمرت المعركة نحو ساعة ونصف الساعة إلى أن أُصيب الفريق «رياض» بقذيفة مدفع، ليلقى ربه.

ونشرت الصحف تفاصيل استشهاد البطل «عبد المنعم رياض»، فاشتعل حماس الشعب والجيش، وشعر الناس أن القادة تغيَّروا، وأحسّ الجنود أن المستحيل ممكن.

وصدرت الأوامر لبعض الجنود بعبور القناة في وضح النهار لأول مرة، وأعلنت مصادر أجنبية أن المدفعية المصرية أطلقت نحو ٥٧ ألف طلقة تجاه خط بارليف مما أدى إلى تحطيم أجزاء كبيرة منه.

وكتب «يوسف السباعي» مقالًا بعنوان «عبد المنعم رياض.. استُشهد بطلًا» جاء فيه: «عبد المنعم رياض صديق عمر يربو على الثلاثين عامًا منذ أن التقينا في مستهل الحياة، ونحن طلبة في الكلية الحربية، وليس من السهل أن يداوم الإنسان على صداقة ما بنفس الحرارة، والمودة مع فرقة الأيام، والبعد الذي تحتِّمه ظروف العمل إلا إذا تميز الصديق بقدرٍ من صفاء القلب، ورحابة الصدر، ونقاء النفس، ولُطف المعشر، وذكاء العقل بحيث لا تستطيع الأيام أن تُوهن من قوة الصلة، وعمق المودة التي تشد الإنسان إليه».

واستطرد «السباعي» قائلًا: «لقد مات عبد المنعم رياض كما عاش.. ميتةً طيبةً.. لقد عرف كيف يعيش.. باسمًا.. شجاعًا.. والأبطال يموتون ميتة الأبطال».

وأردف «السباعي» مخاطبًا «عبد المنعم رياض»: «مِتَّ في أول صف.. بين الجنود.. ووسط نيران المعارك.. فلم تُنصف نفسك فحسب، بل أنصفت جيلك، وأنصفت بلدك، وأنصفت قوميتك العربية.. إنك بموتك قد جعلت من أقوالنا أفعالًا».

واختتم «السباعي» مقاله قائلًا: «لا أملك إلا أن أبتلع مرارة حزني، وأهنئك على استشهادك، وأغبطك على ميتتك المشرفة الطيبة، وأدعو الله أن يكرمنا بمثل ما أكرمك، فلقد قدمت بها لجيلك، ولأمتك ولقوميتك الشيء الكثير».

(٢)

وفي نفس اليوم طرحت مجلة «آخر ساعة» فكرة مختلفة للنقاش تحت عنوان:

- **نحن الآن سنة ٢٠٠٠**

وقدمت المجلة تحقيقًا علميًّا فريدًا من نوعه، أجابت فيه عن عديد من الأسئلة منها: «كيف تبدو الحياة سنة ٢٠٠٠؟ وكيف تتشكل ملامحها بعد هبوط الإنسان فوق القمر؟ ومحاولاته الأخرى لغزو الفضاء؟».

وتابعت: «إن أطفال اليوم سيكونون رجالًا سنة ٢٠٠٠، والذين سيعيشون حتى عام ٢٠٠٠ سيشهدون حياة مختلفة تمامًا، تبدو الآن كأنها حياة بعيدة التصور، وبعيدة عن الخيال، وبتصور علمي صادق، ومبنيٍّ

على الحقائق والأرقام.. تصور عدد من علماء الحياة والطبيعة والفضاء والكيمياء ورجال الاقتصاد والسياسة».

ورصدت المجلة تصور مجموعة من علماء الطبيعة والكيمياء والفضاء والاقتصاد عن الحياة عام ٢٠٠٠.

وتوقع التحقيق أن يكون في استطاعة ربة البيت أن تدخل محلًّا به رف يحمل أكياسًا أشبه بأكياس بذور الزهور، تحتوي على أجنّة متجمدة عمرها يوم واحد، وعليها أوصاف الجنين، ومنها: لون عينيه، وشعره، وحجمه المحتمل، ودرجة ذكائه، وضمان خلوه من الأمراض الوراثية؛ فتأخذه لطبيبها ليزرعه لها في الرحم كأنه ابنها الطبيعي.

وتوقعت المجلة أيضًا أن عدد سكان مصر في عام ٢٠٠٠ سيصل إلى ٧٨ مليون، وسيكون متوسط دخل الفرد هو ٣٦٠٠ دولار، وأن مصر ستكون من أفضل ١٩ دولة على مستوى العالم.

(٣)

وفي تلك الأثناء، ذهب «عبد الرحمن الأبنودي» بصحبة صديقيه «سيد حجاب»، و«سيد خميس» لزيارة وزارة السد العالي، حيث كانت في نفس الشارع الذي يسكن فيه «الأبنودي»، وكان وقتها «سيد حجاب» قد نشر قصيدة جديدة في «الأهرام» (في مربع «صلاح جاهين») وعندما وصل الثلاثة إلى الوزارة وجدوا الموظف المسؤول عن رحلات السد في الوزارة، محتفظًا بقصيدة «حجاب» تحت زجاج مكتبه، فعندما شاهدوا ذلك، قالوا «كده ضمنّا إننا هنروح السد العالي مرتاحين».

لكن عندما طلبوا من الموظف الذهاب إلى السد العالي ليكتبوا عنه، قال لهم: «لا تتفاءلوا كثيرًا إحنا مش في الاتحاد السوفييتي الذي يُرسل الشعراء والكُتاب إلى المشاريع القومية، وأنصحكم بأن لا تحاولوا مرة أخرى، فلن تذهبوا».

وبالفعل تم رفض الزيارة، وعاد الثلاثة؛ لكن «الأبنودي» كرر المحاولة مرة أخرى.

وسافر إلى السد العالي حين كانت الرحلة تستغرق يومين، ومكث مع العمال من أبناء قريته «أبنود» سبعة عشر يومًا، ولم تكن هناك سوى طريقة واحدة فقط «للاستحمام»، وهي أن تملأ صفيحة مياه من نهر النيل، وتغتسل بها، وتنتظر الملابس حتى تجفّ، ولم يكن هناك طعام سوى «المِشّ»، والملوخية الناشفة.

وعاد «الأبنودي» من تلك الرحلة الشاقة بديوان «حراجي القط.. العامل في السد العالي».

obeikandl.com